تنظيم النسل في التراث الإسلامي*

(عبد الرحمن عمران)

مراجعة أبوبكر باقادر

لن نكون مبالغين إن قلنا أن كتاب عبد الرحيم عمران يقدم المادة العلمية، الأساسية الضرورية لأي باحث علمي عن موضوع تحديد وتنظيم النسل في التجربة الإسلامية. إذ يعرض الكتاب وبشكل علمي منظّم ودقيق لمفهوم الأسرة والزواج في الإسلام موضحاً حقوق وواجبات الزوجين كما هي في النصوص الإسلامية الأساسية (القرآن والسنة)، واجتهادات الفقهاء. كذلك يعرض لمفهوم التعدد ووظائفه وحدوده وموقف المرأة من التعدد وكيف أن الإسلام يعطيها حق الخلع إن أرادت. ثم يعدّد المؤلف عناصر تنظيم الأسرة من حيث الاعتبارات الوراثية والثقافية والاجتماعية والزواجية والتنظيمية. ويعالج مسألة حقوق الوالدين وحقوق الأبناء في الإسلام، ليوضح أن عملية تنظيم النسل تنطلق من هذه الحقوق من ناحية ومن مكانة وموقع المرأة الذي كفل لها حق المشاركة والمسؤولية وحق التعليم والجهاد واختيار شريك الحياة والمشاركة في الحياة العامة وغيرها من حقوق. ومن ثم فإن تنظيم النسل يتفق مع القواعد الأصولية المنادية بالستر وعدم الإضرار، وأن الإسلام دين توسط وضامن لحياةٍ أفضل لمعتنقيه.

وعبد الرحيم عمران يزوّد المطّلع على كتابه بالمصادر الإسلامية الأساسية بخصوص مسألة تنظيم النسل وبشكل منظّم إذ يوضح أن مصادر التشريع في الإسلام تعتمد على الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح والمصالح

(*) Abdel Rahim Omran, Family Planning in the Legacy of Islam, London: Routledge, 1992.

المرسلة وغيرها إضافةً إلى قواعد فقهية وأصولية عامة معتمدة، ويسعى إلى توضيح إسهام كل واحد من هذه المصادر في موضوع دراسته.

يورد من القرآن الأدلة المتعلقة بالوأد وكيف أن معارضي تنظيم النسل عدوا هذه العملية وأداً محرماً، وكيف عارضهم من يرون التنظيم في تفسير ذلك. ثم بعد ذلك استعرض الآيات المؤكدة لقبول «القدر» وكفالة «الرزق» و«التوكل» على الله. ثم عرض كيف استخدم كلٌّ من مناصري ومعارضي تنظيم النسل هذه الآيات. ثم عرض لمسألة كيف أن الأبناء هبة لله ومسألة التكاثر وأهميتها لتقوية الأمة وصلة هذه الأمور بمسألة تنظيم النسل من وجهة نظر المؤيدين والمعارضين. ثم أردف ذلك بتوضيح موقف الفقهاء من مسألة التكاثر إزاء إلحاق الضرر بالأم ومن ثم تعيين المحددات الثقافية والديموغرافية للتكاثر من ناحية ومتطلباته في السياق الإسلامي.

بعد استعراض الآيات القرآنية استعرض عبد الرحيم عمران ما ورد إجمالاً في السنة المطهرة، خاصةً مسألة «العزل» كما وردت في حديث جابر والأحاديث الأخرى التي ورد فيها موضوع العزل. ثم ربط المسألة بأحاديث أخرى منها حديث مسلم عن الرجل الذي سأل عن جاريته التي يخشى أن تحمل وكيف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: إعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قُدر لها. والحديث الذي أورده الكاساني: «اعزلوهن أو لا تعزلوهن إن الله تعالى إذا أراد خلق نسمة فهو خالقها» وغيرها من أحاديث. ومنها تفسيره صلى الله عليه وسلم للآية: «نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم» في حديث الحاكم في المستدرك والذهبي والطبري. وكذلك كيف أن العزل مرتبط برضى الزوجة في حديث أبي هريرة: «لا يعزل عن الحرة إلا بإذنها».

كذلك حديث «الغيلة» وكيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحرِّمها لكنه لم يشجع عليها، كما في حديث مسلم وحديث أبي داود. إضافة إلى أن المؤلِّف يذكر بعض الأحاديث التي توضح أن العزل يعد وأداً أصغر وأخرى لا ترى ذلك وتكذِّب ادّعاء اليهود في ذلك.

بعد أن يستعرض كافة الأحاديث المرتبطة بالعزل يورد الآراء الفقهية المؤيدة

له عند الغزالي وابن القيم وابن حجر العسقلاني وغيرهم من العلماء، ثم يورد الآراء المعارضة للعزل بناءً على أحاديث وآثار، ثم يوضح الأقوال التي اعتمدها العلماء لنقض تلك الآراء المعارضة، ويعتمد فيها على ما يورده من الآراء الفقهية القديمة والمعاصرة لتأكيد «موقفه».

بعدها يقدّم مواقف المذاهب الفقهية المختلفة من القرن التاسع الميلادي حتى القرن التاسع عشر، في مسائل تنظيم النسل (بالعزل) وهو يورد ذلك في شكل تتبّع تاريخي للقضايا المثارة والردود والتفاعلات مع مواقف وآراء الفقهاء كما يقدمهم التراث الإسلامي. وهو لا يكتفي بالمذاهب الفقهية الستة، إنما يدرج أيضاً مواقف الخوارج والشيعة والظاهرية أيضاً. والمادة التي يقدمها أساسية ومهمة للدارسين والباحثين لتوضيح تعدد وغنى المصادر الفقهية والحاجة الماسة لإعادة النظر فيها من أجل اتخاذ مواقف وسياسات تمكّن من مواجهة متطلبات العصر الحديث.

ويورد عبد الرحيم عمران المبررات التي قال بها الفقهاء قديماً وحديثاً لاستخدام موانع الحمل إسلامياً. وهو إذ يستعرض هذه الأقوال يربط كل واحد منها بأصحابها مع توضيح أن المبررات تهتم أساساً بصحة الأم ثم الأطفال ثم صحة وصلاح شأن الأسرة عموماً. ويقسم عمران هذه المبررات إجمالاً إلى مبررات ذات بعد اقتصادي، ويردّ على الاعتراضات المحتملة على تلك المبررات، ثم مبررات صحية ويقارنها بالمبررات الطبية التي أفردها الأطباء المسلمون قديماً وحديثاً. ويدعم آراءه ومواقفه بما أورد الفقهاء المسلمون وما كتبه الفلاسفة والأطباء المسلمون في مدوناتهم كابن سينا وغيره، ثم يقارن ذلك بما يقدمه الطب الحديث مؤيداً ما ذهب إليه أولئك الفقهاء والفلاسفة الأطباء. ثم يورد أخيراً ما أسماه بالمبررات الطبية من حيث التأكيد على أهمية العناية بصحة الأطفال وإعطائهم فرصاً أفضل لحياةٍ هانئة.

ثم يعرض عمران لبعض القضايا الحساسة مثل مسألة العقم وعلاجه بالإخصاب الصناعي ومواقف الفقهاء من هذه المسألة ثم يعرض لموقف الفقهاء من وسائل منع الحمل المختلفة بما فيها تحديد النسل بالعقم الصناعي وأطفال الأنابيب واستجار الرحم وغيرها من الوسائل الحديثة التي قامت نتيجة

التقدم العلمي الحديث.

ثم يدرس مسألة الإجهاض وموقف المذاهب الفقهية من هذه المسألة أو يدرس بالتحديد موقف العلماء بعد مضي 120 يوماً على تشكل الجنين. ثم يورد مسألة رفض طفل ثم تشكله رغم انتشار وسائل منع الحمل وما يمكن أن ينتج عن ذلك من قضايا فقهية، خاصة ما تعلق منها بإلحاق نسب الطفل المولود بالرجل.

ويختتم عبد الرحيم عمران كتابه بتقديم ملخص مهم لمعظم المؤتمرات والكتابات التي أنتجها الفقهاء في العصر الحديث حول مسألة تنظيم النسل وكيف أن مسألة تنظيم النسل شكلت تحدياً للفقهاء كان عليهم أن يجتهدوا في التصدي له، والوصول لما يساعد الأمة في مواجهة مسألة الزيادة السكانية. وعبد الرحيم لا يكتفي بإيراد آراء ومواقف مؤيدة للتنظيم وإنما يورد أيضاً آراء معارضيه وحججهم، ولعل من أبرز معارضي تنظيم النسل الشيخ محمد أبو زهرة والدكتور محمد سلاّم مدكور ومولانا أبو الأعلى المودودي والشيخ أحمد سحنون.

ويورد عمران أهم المراجع التي تناولت موضوع وسائل منع الحمل والتي كان أولها ما كتبه الشيخ أحمد الشرباصي ومدكور والبوطي، ويورد كذلك أهم المؤتمرات والفتاوى التي وردت بخصوص موانع الحمل وتنظيم النسل عموماً. وهو يورد ملخصاً عن موضوعات تلك المؤتمرات ثم يورد نصوص الفتاوى المشهورة مقدماً بذلك مادة أولية أساسية للباحثين بعده للإفادة منها. ثم إنه ذيّل الكتاب بأبرز وأهم المراجع الضرورية باللغات الأوروبية والعربية لمن يهمهم الأمر.

ويشكّل كتاب عمران دون شك انعطافةً مهمةً في الدراسات السكانية من ناحية الأخذ بتعاليم الشرع الكريم والإفادة من المادة العلمية المتوافرة في كتابات وآراء الفقهاء ومن ثم فهو مرجع لا غنى عنه للدارسين والمهتمين بالموضوعات السكانية والتنمية في بلادنا، لذا فمن المنتظر أن يحظى باهتمام ودعم صندوق الدراسات السكانية في الأمم المتحدة وموافقة ومراجعة الأزهر الشريف!